من كتاب "وجع الكنيسة"(٣)
الحكمة الشاملة لمؤسِّس الكنيسة

القديس نيكولا فيليميروفيتش

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

بولادته، ضمّ وربط معاً الأدنى والأعلى، الطبيعي والخارق للطبيعة: الإسطبل والمذود والقش والأغنام والرعاة من جهة؛ النجوم والملائكة والمجوس وأصلَ داود الملكي من جهة أخرى.

وشمل بحياته تقشفَ الرهبان الهنودِ ويوحنا المعمدان والناصريين من جهة. ومن ناحية أخرى، الاحتفالَ الكونفوشيوسي المعتدل، في بيوتِ الأصدقاء، عند حفلِ الزواج وفي المناسباتِ الرسمية الأخرى.

لقد تشابكت دراما حياته مع حياةِ جميعِ طبقاتِ الناس: الرجال والنساء والأطفال، اليهود والوثنيين، الملك هيرودوس والحاكم بيلاطس، الكهنة والجنود، التجار والمتسولين، المتعلمين من السفسطائيين والجهلاء، المرضى والأصحاء، الصالحين والخطأة، اليهود والمصريين، اليونانيين والرومان، وكل مَن يمكن الالتقاء به في فلسطين، سوق الأجناس والمعتقدات.

لم يكن بأي حال من الأحوال متحزّباً كالفريسيين وعلماء الناموس. دعا كلاً من الفريسيين وأعدائهم ليتبعوه. ذهب إلى الهيكل ليُصلي، لكنه كان يصلي أيضاً لوحده في الصحراء. لقد حفظ يوم السبت، كما كسر السبت بشفاء المرضى وعمل الخير في هذا اليوم المقدس. لم يأتِ لينقض الناموس، بل أتى بشيء أعلى من الناموس وحتى شمل الشريعة نفسها، أي المحبة والرحمة.

لقد وبّخ الناس الذين كانوا يُصلّون مرددين "يا رب يا رب!"، ومع ذلك فقد صلّى بنفسه كثيراً. وبّخ الصائمين ومع ذلك هو نفسه كان يصوم. ما كان يبحث عنه حقاً لم يكن الصلاةَ ولا الصوم، بل الروحَ الذي فيه يُصلّى أو يصام.

لقد أمر الشعب أن يعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. لم ينتقد هذا الشكل أو ذاك من أشكال الحكم، ولم يبرِز المَلَكية أو الجمهورية أو الاشتراكية كشكلٍ أفضل من الآخر. في نظامه، تم تضمين جميع أشكال الحكم على قدم المساواة، على أنها تكون صالحة أو شريرة بحسب المكانة الذي تعطيها لله، والمواهب التي تقدّمها على النحو الواجب لله، والروح الذي تستوحي منه.

لقد اتّبع عادات أمّته ولم يخرقها أو يتهرب منها عن عمد. كان يأكل بحسب الشريعة، ويغسل يديه بحسب الناموس، ويقصد المدينة المقدسة ويشارك في العبادة في الهيكل (على الرغم من أنه كان "أعظم من الهيكل")، كما يقضي الناموس. ويبدو أنه لم يستثنِ أيَّ عُرفٍ من أعراف العبادة أو الحياة الاجتماعية، مع أنه احتقر الروح النجسة والضعيفة التي ملأ بها المنافقون هذه الأعراف. أما في الجدال، فقد حاول بشكل طبيعي، وهو رسول الروح الجديدة، أن ينقذَ الروح النقية حتى ولو بدون شكل، لا الشكلَ الممتلئ بروحٍ نجسة. لذلك

أحس نفسَه مضطراً أن يقول: "لَيْسَ مَا يَدْخُلُ الْفَمَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ" أو " الأَكْلُ بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ فَلاَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ" أو " أَنْتَ مَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ" إلخ.

ومع ذلك، فقد احتضن جميع الجنسيات والأعراق. بالنسبة له، لم يكن شيء مما خلقه الله نجساً، إلا الأرواح النجسة. عندما طلب قائد المئة الروماني المساعدة منه منحه إياها. وعندما صرخ إليه الناس من خارج حدود إسرائيل، من شواطئ صور وصيدا، لم يستمع إلى تحذيرات تلاميذه الاِستِئثارِيّة، بل حتّى هناك وزّع رحمته الإلهية. كان حريصاً حتى على أهل نينوى. ولما أوفَد تلاميذه أرسلهم إلى "كل الأمم".

أخيراً، ضمّ ما هو طبيعي وما هو فوق الطبيعي. تحدث مع الأرواح. رأى الشيطان كالبرق يسقط من السماء. وقف بين بطرس ويوحنا ويعقوب من جهة وموسى وإيليا من جهة أخرى. رأى كل الناس زنابقَ في الحقل وعصافيرَ على السطح، لكنه رأى أكثر من ذلك، رأى كيف أنَّ أباه ألبس الزنابق وأطعم العصافير. لقد وحّد ما هو طبيعي وما يفوق الطبيعة في تعاليمه.

أن "تحبوا الذين يحبونكم"، كان تعليماً طبيعياً. لكنه أضاف: "أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ" ما هو خارقٌ للطبيعة.

أن "تعطوا مَن يعطيكم" كان تعليماً طبيعياً. لكنه أضاف: "وللذين لا يعطونكم"، وهذا أمر يفوق الطبيعة.

"باركوا الذين يباركونكم". لكنه أضاف: "بل والذين يلعنونكم"، وهذا كان يفوق الطبيعة.

كما أنه وحّد الطبيعي وما فوق الطبيعة في موته. تألّم ومات معذّباً. قام من بين الأموات، نزل إلى الجحيم وصعد إلى السماوات. بالنسبة له، كان هناك حدٌّ صغير بين السماء والأرض، بين الطبيعة وما فوق الطبيعة، كما بين إسرائيل وكنعان، أو بين الإنسان والإنسان، أو بين الشكل والشكل.

كانت حكمته شاملةً من البداية إلى النهاية. ما الذي استبعده إلا الأرواح النجسة؟ كان تلاميذه استئثاريين مثل أي شخص آخر، ذواتيين (محبين لذاتهم) عند الحكم والتصرف بحسب الحكمة الطبيعية. ولكن لما نظروا إليه تصالحوا. لقد كان هو الحكمة المقدسة، حيث يمكن لكل واحد أن يجد مسكناً لنفسه، ولكل تلميذ، وكل أمة، وكل شكل من أشكال العبادة، وكل شيء، ما عدا الروح النجس.